فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون*

بقلم الدكتور: زغلول النجـار

هذه الآية الكريمة جاءت في خواتيم سورة المعارج، وهي سورة مكية، وعدد آياتها أربع وأربعون بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود وصف من أوصاف الله(تعالى) فيها يصف به ربنا(تبارك اسمه) ذاته العلية بوصف(ذي المعارج) أي ذي العلو والرفعة، لأن المعارج هي المصاعد والمدارج التي يرتقى بها إلى الأعلى، جمع معرج(بفتح الميم وكسرها)؛ والقرآن الكريم يسمى الحركة في السماء دوما بالعروج، ومنها معراج رسول الله(صلي الله عليه وسلم).
وعن أسباب نزول هذه السورة المباركة يروي عن ابن عباس(رضي الله عنهما) قوله بأن أحد كفار قريش(وكان اسمه النضر بن الحارث) حين سمع تحذير رسول الله(صلي الله عليه وسلم) من عذاب الله(تعالي) قال مستكبرا قولته الخبيثة التي سجلها عليه القرآن الكريم في سورة الأنفال، بقول الحق(تبارك وتعالي):

وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم*(الأنفال:٣٢)
فأنزل الله(تعالي) رده الحق في مطلع سورة المعارج التي استهلها بقوله العزيز:

سأل سائل بعذاب واقع* للكافرين ليس له دافع* من الله ذي المعارج* تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة*(المعارج: ١ ـ ٤).
ويدور المحور الرئيسي لسورة المعارج حول حقيقة الآخرة، ومايصاحبها من بعث، وحساب، وجزاء، يعقبه الخلود في حياة أبدية قادمة إما في الجنة أو في الناركما يدور حول صعوبة استيعاب الكفار والمشركين لإمكانية البعث انطلاقا من إنكارهم لوجود الله، أو من تشويه مفهوم الألوهية لديهم في عدد من المعتقدات الفاسدة والرائجة عندهم...!!

وتبدأ السورة الكريمة باستنكار هذا الموقف المستهترالذي وقفه أحد كفار قريش مستهينا بالآخرة وعذابها، فدعا بنزول العذاب علي نفسه وعلي قومه، فنزل عذاب الله فورا به وبهم، فقد هلك هذا الكافر في يوم بدر، ونزلت الهزيمة المنكرة بقومه يومها. وتأكيدا علي طلاقة القدرة الإلهية تصف الآيات بعد ذلك حركة كل من الروح والملائكة في السماء بالعروج إلي الله ذي المعارج، وإن كانت طبيعة كل من الملائكة والروح من الأمور الغائبة عن علم الإنسان وإدراكه غيبة مطلقة، إلا أن الآيات تشير إلي أن مثل هذا العروج يتم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.
وبعد ذلك توصي الآيات رسول الله(صلي الله عليه وسلم) بالصبر الجميل أمام إنكار الكافرين ـ في زمانه ـ لبعثته الشريفة، ولما جاء به من الحق، والوصية مستمرة إلي زماننا وحتي قيام الساعة ـ توصي أتباع هذا النبي والرسول الخاتم بالصبر الجميل أمام كفر الكافرين، وشرك المشركين، وإصرارهم علي إنكار بعثة خاتم المرسلين(صلي الله عليه وسلم)، وإنكار مابعث به من دين خاتم.

وتؤكد الآيات في سورة المعارج أن الكافرين يرون يوم القيامة بعيدا، ويراه ربنا قريبا لأن يوما عنده بخمسين ألف سنة مما نعد نحن أهل الأرض؛ والزمن من خلق الله، والمخلوق لايحد الخالق أبدا...!!
وبعد ذلك تبدأ الآيات في استعراض جانب من أهوال يوم القيامة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وقد استشهدت سورة المعارج على صدق ما جاء بها من أمور الغيب المطلق بالعديد من الآيات الكونية الشاهدة لله(تعالى) بطلاقة القدرة على إبداع الخلق، وعلى إفنائه وإعادة خلقه من جديد، ومن هذه الآيات القسم بالمشارق والمغارب، وفيه إشارة ضمنية رقيقة إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى كروية كل أجرام السماء ودورانها حول محاورها، وجريها في مداراتها، فلولا ذلك ما تعددت المشارق والمغارب أبدا.

وقبل مناقشة ذلك لابد من استعراض سريع لأقوال عدد من كبار المفسرين من القدامى والمعاصرين في شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله(تعالى):

فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون* على أن نبـدل خيرا منهم وماتحن بمسبوقين*(المعارج: ٤٠ ـ ٤١)

* ذكر ابن كثير(يرحمه الله) ما نصه:... ثم قال تعالى:(فلا أقسم برب المشارق والمغارب) أي الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها(إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم) أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه فإن قدرته صالحة لذلك،(وما نحن بمسبوقين) أي بعاجزين.... واختار ابن جرير(على أن نبدل خيرا منهم) أي أمة تطيعنا ولا تعصينا... والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم....

* وجاء في تفسير الجلالين(رحم الله كاتبيه) ما نصه:(فلا) لا زائدة[لتأكيد القسم](اقسم برب المشارق والمغارب) للشمس والقمر، وسائر الكواكب(إنا لقادرون)(على أن نبدل) نأتي بدلهم(خيرا منهم وما نحن بمسبوقين) بعاجزين عن ذلك.

* وجاء في الظلال(رحم الله كاتبه) ما نصه: والأمر ليس في حاجة إلى قسم، ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب يوحي بعظمة الخالق. والمشارق والمغارب قد تعني مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسيح كما أنها تعني المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض، وهي تتوالى في كل لحظة، ففي كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفي مغرب... وايا كان مدلول المشارق والمغارب فهو يوحي إلى القلب بضخامة هذا الوجود، وبعظمة الخالق لهذا الوجود. فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب على انه سبحانه قادر على أن يخلق خيرا منهم وانهم لا يسبقونه و لا يفوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم؟.

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن(رحم الله كاتبه) ما نصه:
أقسم، و(لا) مزيدة... والمشارق والمغارب: مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها.(وما نحن بمسبوقين) أي بمغلوبين، أو عاجزين عن أن نأتي بقوم آخرين خير منهم

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم(جزاهم الله خيرا) ما نصه:
فلا أقسم برب المشارق والمغارب من الأيام والكواكب والهدايات، إنا لقادرون على أن نهلكهم ونأتي بمن هو أطوع منهم لله، وما نحن بعاجزين عن هذا التبديل.
وجاء في الهامش ما يلي: قد يكون المراد بالمشارق والمغارب أقطار ملك الله على سعته التي لاتحد كما أشير في الآية١٢٧ من سورة الأعراف.

وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها

للدلالة على أرجاء الأرض المشار إليها.
وقد يكون المراد أيضا مشارق الشمس والقمر وكافة النجوم والكواكب ومغاربها جميعا للدلالة أيضا على ملك الله كله. وترجع ظاهرة شروق الأجرام السماوية وغروبها إلى دوران الأرض حول محورها من الغرب نحو الشرق ومن ثم تبدو لنا تلك الأجرام متحركة في قبة السماء على عكس ذلك الاتجاه مشرقة على الأفق الشرقي وغاربة من الأفق الغربي، أو على الأقل دائرة من المشرق إلى المغرب حول النجم القطبي " في نصف الكرة الشمالي مثلا " وإذا كان البعد القطبي للنجم اصغر من عرض مكان الراصد فالنجم لا يشرق ولا يغرب بل يرسم دائرة صغيرة

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

وهمية حول القطب الشمالي، وبذلك تشير الآية كذلك إلى ساعات الليل راجع قوله تعالى:
وعلامات وبالنجم هم يهتدون.

وظاهرة الشروق والغروب إشارة إذن إلى دوران كرة الأرض، وهي نعمة كبرى من نعم الله على أحياء هذا الكوكب، فلولا دوران الأرض حول محورها لتعرض نصفها لضوء الشمس مدة نصف سنة وحرم من الضوء تماما النصف الآخر، وهذا مالا تستقيم معه الحياة كما نعهدها.
وإذا اقتصرنا عند ذكر المشارق والمغارب على تدبير الشمس وحدها دون سائر النجوم والكواكب، كانت هذه إشارة إلى التعدد اللانهائي لمشارق الأرض ومغاربها يوما بعد يوم في كل موضع على سطح الأرض، أو حتى في لحظة من لحظات الزمان تمر على الكرة الأرضية، فالشمس في كل لحظة غاربة عند نقطة ومشرقة في نقطة أخرى تقابلها. وهذا من محكم تدبير الله وإعجاز قدرته....

* وجاء في صفوة التفاسير(جزى الله كاتبه خيرا) ما نصه: أي فأقسم برب مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها.

المشارق والمغارب في القرآن الكريم

جاء ذكر المشرق والمغرب في القرآن الكريم بالإفراد، والتثنية والجمع في أحد عشر موضعا على النحو التالي:
أولا بالإفراد: جاء ذكر المشرق والمغرب في ست آيات قرآنية كريمة هي كما يلي:

١ ـ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم*(البقرة:١١٥)
٢ ـ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم* (لبقرة:١٤٢)
٣ـ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين...*(البقرة١٧٧)
٤ ـ... قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر و الله لا يهدي القوم الظالمين (البقرة ٢٥٨)
٥ـ قال رب المشرق و المغرب و ما بينهما إن كنتم تعقلون.(الشعراء ٢٨)
٦ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا*(المزمل:٩)

ثانيا: وجاء ذكر المشرقين أو ذكر المشرقين والمغربين مرتين في كتاب الله على لنحو التالي:
١ ـ حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين*(الزخرف:٣٨)
٢ ـ رب المشرقين ورب المغربين*(الرحمن:١٧)

ثالثا: وجاء ذكر المشارق وحدها مرة وذكر المشارق والمغارب مرتين في كتاب الله على لنحو التالي:
١ ـ رب السموات والأرض ومابينهما ورب المشارق*(الصافات٥)
٢ ـ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها....*(الأعراف:١٣٧)
٣ ـ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون(المعارج٤٠)

وهنا ثار تساؤل المفسرين عن سبب ذكر المشرق والمغرب بالإفراد، والمشرقين والمغربين بالتثنية، والمشارق والمغارب بالجمع وتعددت إجاباتهم، ومن هنا كانت ضرورة توظيف الحقائق العلمية التي توفرت في زماننا حتى مكن فهم دلالة هذه الآيات الكريمة بشكل أعمق.

المدلول العلمي للآية الكريمة

بما أن المخاطبين بالقرآن الكريم هم أهل الأرض جميعا، فمن المنطقي أن يكون المقصود بالتعبير القرآني رب المشارق والمغارب هو مشارق الأرض ومغاربها؛ ولكن بما أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي له ملك السماوات والأرض وما ينهما، فإن دلالة الآية الكريمة تتسع لتشمل مشارق ومغارب كل أجرام السماء، وعلى ذلك فلابد من فهم دلالة الآية الكريمة في هذين الإطارين على النحو التالي:

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

المشارق والمغارب بالنسبة إلى الأرض:

(١) مشرق الأرض ومغربها:

على الرغم من أن كل ما في صفحة السماء من أجرام يدور حول محوره، ويسبح جاريا في مداره إلا أن النجم القطبي يبدو ثابتا في مكانه بالنسبة للأرض، ولا يشترك في الدوران الظاهري لقبة السماء وما بها من نجوم، والناتج عن دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق دورة كاملة في كل أربع وعشرين ساعة(في زماننا الراهن). والسبب في ذلك هو أن النجم القطبي يقع على امتداد محور دوران الأرض حول نفسها تماما، وبذلك يحدد لنا اتجاه الشمال الحقيقي(والمعروف باسم الشمالي الجغرافي)؛ ويتعامد على هذا الاتجاه يمينا شرق الأرض. ويسارا غربها أي اتجاه الشرق الحقيقي والغرب الحقيقي بالنسبة للأرض ككوكب، ويتضح من ذلك جانب من جوانب الحكمة الإلهية المبدعة بخلق هذه العلاقة حتى يبقى النجم القطبي بمثابة البوصلة الكونية المعلقة في السماء الدنيا لإرشاد أهل الأرض إلى الاتجاهات الأربعة الأصلية، وفي ذلك يقول ربنا(تبارك وتعالى):

وعلامات وبالنجم هم يهتدون* (النحل:١٦)

ويقول: رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا*(المزمل:٩)

(٢) مشارق الأرض ومغاربها:

بدوران الأرض حول محورها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة(في زماننا الراهن) يتحدد يوم الأرض الذي يتقاسمه الليل والنهار. وبدوران القمر دورة كاملة حول محوره، وحول الأرض في مدة تقدر بحوالي٢٩،٥ يوما يتحدد شهر الأرض القمري الذي يمكن تقسيمه إلى أيام وأسابيع بتتابع مراحل شكل القمر من الميلاد إلى المحاق. ويتم القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض في كل دورة كاملة للأرض حول الشمس تقريبا وبذلك يتحدد طول السنة القمرية بحوالي ٣٥٤ يوما، وتقسم إلى اثني عشر شهرا قمريا محددا.
وسبح كل من الأرض وقمرها حول الشمس في مدار محدد ليتما دورة كاملة في مدة تقدر بحوالي(٣٦٥،٢٥) يوما تتحدد السنة الشمسية للأرض، وهي تزيد على السنة القمرية بحوالي ١١ يوما.

وبسبب ميل محور دوران الأرض على الخط الواصل بين مركزي الأرض والشمس تتبادل السنة الشمسية فصول أربعة هي الربيع والصيف والخريف والشتاء. وبواسطة تتابع بروج السماء التي تمر بها الأرض في أثناء سبحها في مدارها حول الشمس يمكن تقسيم السنة الشمسية إلى شهورها الاثني عشر.
وكان قدماء المصريين قد قدروا السنة الشمسية بحوالي ٣٦٥ يوما، وتلاهم البابليون في الربط بين محيط الدائرة الذي يبلغ ٣٦٠ درجة، وبين عدد أيام السنة الشمسية، وشكل هذا الربط أساس تقسيمات الساعة إلى ٦٠ دقيقة، والدقيقة إلى ٦٠ ثانية.

وكانت ملاحظة تغير المواقع الظاهرية للشمس بالنهار بين شروقها وغروبها وسيلة من وسائل إدراك مرور الزمن وتتبع حركته.

وبفعل دوران الأرض حول محورها دورة كاملة كل أربع وعشرين ساعة، فإن مساحة نصف الكرة الأرضية المغمور بنور النهار تتناقص من أحد طرفيها بولوجه في ظلمة الليل، وتتزايد بنفس القدر من الطرف الآخر الذي يخرج من ظلمة الليل إلى نور النهار، ويستمر الحال كذلك في تبادل بطيء حتى يعم نور النهار نصف الأرض الذي كان مظلما، ويعم ظلام الليل نصفها الذي كان منيرا، ومن هنا تتعدد المشارق والمغارب على خط العرض الواحد، ويتأخر شروق الشمس كلما اتجهنا إلى الغرب. ولما كانت الأرض تدور حول محورها دورة كاملة أي (٣٦٠) درجة كل ٢٤ ساعة، فإن ضوء الشمس ينتقل ١٥ درجة من درجات خطوط الطول في الساعة الواحدة من الشرق إلى الغرب، أي بمعدل ٤ دقائق لخط الطول الواحد؛ ومعنى ذلك أن الفرق الزمني الناشئ عن اختلاف خطوط الطول علي خط العرض الواحد يقدر بأربع دقائق لكل درجة من درجات خطوط الطول، ويضاف هذا الفرق إذا كان الموقع في نصف الأرض الشرقي، ويطرح إذا كان في نصفها الغربي. ويعتبر خط الطول(١٨٠) هو الخط العالمي للتاريخ، وباجتيازه من الشرق إلي الغرب يتأخر الزمن يوما كاملا؛ ويتعرج الخط العالمي للتاريخ شرقا وغربا عبر خط طول(١٨٠) وذلك بتأثير خطوط العرض، ويمر من مضيق بيرنج شمالا إلى شرق جزيرة نيوزيلندا جنوبا.

ويتغير الزمن من موقع لآخر على طول خط الاستواء بسبب الانتقال من خط طول إلى خط طول آخر بعد أربع

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

دقائق،
أما الاختلاف في الزمن "وبالتالي في لحظتي شروق الشمس وغروبها " عند الانتقال من خط الاستواء إلى خطوط العرض شمالا وجنوبا فهو أكبر من الانتقال على خط العرض الواحد وذلك لأن الانتقال عبر خطوط العرض له أبلغ الأثر على زمني شروق وغروب الشمس، وهذا الأثر ليس ثابتا على مر الأيام بسبب ميل محور دوران الأرض، كما أنه لا يتناسب تناسبا طرديا مع فروق خطوط العرض، ويتضح ذلك من أن مقدار الفرق الزمني لكل من شروق وغروب الشمس بين خطي العرض ٥٠ و ٦٠ درجة شمالا أكبر بأضعاف كثيرة من مقدار الفرق الزمني بين خطي عرض ١٠ و ٢٠ شمالا.

أضف إلى ذلك أن هذه الفروق غير ثابتة على مدار السنة مما يعدد مشارق الأرض ومغاربها إلى أرقام لا تكاد تدرك.
والفروق بين أزمنة الشروق والغروب في نفس اليوم عند موقعين على خط طول واحد " ولكنهما على خطي عرض مختلفين " هي أقل من الفروق بين موقعين بينهما نفس القيمة في مقدار خطي العرض، بينما يقعان على خطي طول مختلفين.

كذلك إذا حسبنا زمني شروق وغروب الشمس في المكان الواحد من سطح الأرض على مدار السنة، فإننا نجدهما يتغيران تغيرا كبيرا خاصة عند خطوط العرض العليا. فالمكان الواحد على سطح الأرض له مشارق ومغارب عديدة على مدار السنة.
والحركة الظاهرية للشمس في مستوى دائرة البروج تؤثر في مقدار الميل الاستوائي لها، وتجعله يتغير من يوم إلى يوم آخر؛ والميل الاستوائي له تأثير كبير في تحديد مكان وزمان لحظتي الشروق والغروب للشمس، ويزداد ذلك بزيادة قيم خطوط العرض.

وقد تتحد نقاط على خطوط طول وعرض مختلفة في لحظتي الشروق والغروب، والخطوط الواصلة بينها تعرف باسم خطوط اتحاد المطالع أو خطوط اتحاد المغارب، وهذه الخطوط يختلف شكلها من يوم إلى آخر: وهي في اليوم الواحد تكون موازية لبعضها البعض.
في ٣/٢١ من كل عام يقع الاعتدال الربيعي، وفي ٩/٢٣ يقع الاعتدال الخريفي في نصف الكرة الشمالي فيتساوى الليل والنهار لتعامد أشعة الشمس على خط الاستواء.

وفي ٢١٦/٢١ من كل عام يقع الانقلاب الصيفي في نصف الكرة الشمالي لتعامد أشعة الشمس على مدار السرطان، ويكون النهار أطول نهار في السنة وتتمتع المنطقة الواقعة حول القطب الشمالي بنهار يدوم ٢٤ ساعة، ويحل ليل مدته ٢٤ ساعة على المناطق الواقعة حول القطب الجنوبي.
ويكون النهار أقصر ما يكون في نصف الكرة الجنوبي في ٦/٢١ أما عند خط الاستواء فيتساوى طول كل من الليل والنهار على مدار السنة.

في ١٢/٢٢ من كل عام يقع الانقلاب الشتوي في نصف الكرة الشمالي حيث تتعامد أشعة الشمس على مدار الجدي، وتتمتع المنطقة حول القطب الجنوبي بنهار يدوم ٢٤ ساعة بينما تتمتع المنطقة حول القطب الشمالي بليل يدوم ٢٤ ساعة كاملة.
من هذا الاستعراض يتضح تعدد المشارق والمغارب بتبادل الأيام والفصول على الموقع الواحد في كل سنة، وبتعدد المواقع على خط العرض الواحد مع تعدد خطوط الطول، وعلى خط الطول الواحد يتعدد خطوط العرض وبتعدد كل ذلك تتعدد المشارق والمغارب تعددا مذهلا فسبحان القائل رب المشارق والمغارب.

٣ ـ مشرقا الأرض ومغرباها:

نتيجة لدوران الأرض حول محورها انبعجت قليلا عند خط الاستواء، وتفلطحت قليلا عند القطبين، ونتيجة لذلك اصبح لكل من المشارق والمغارب العديدة نهايتان تمثلان أقصى زمانين ومكانين لكل من شروق الشمس وغروبها على أقصى بقعتين من بقاع الأرض تمثل كل منهما مرة أقصى الشروق، ومرة أقصى الغروب، ومن هنا كان للأرض مشرقان ومغربان وسبحان القائل' رب المشرقين ورب المغربين

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

ثانيا: المشارق والمغارب بالنسبة لباقي أجرام السماء:

من الواضح أن المؤثرات السابقة كلها على زمني ومكاني شروق وغروب الشمس تشترك في التأثير على زمني ومكاني شروق وغروب القمر، ويزيد عليهما بالنسبة للقمر عامل آخر هو مقدار خط عرض القمر السماوي، وهو يتغير في حدود ٥ درجات تقريبا إيجابا وسلبا، وعندما يكون خط العرض السماوي للقمر صفرا فإنه يتحد في غروبه مع الشمس، وبذلك يكون للقمر العديد من المشارق والمغارب كما يكون له مشرق ومغرب، ونهايتان لكل من شروقه وغروبه، وكذلك الحال مع بقية أجرام السماء والتي نتيجة لتكورها ولدورانها حول محاورها، ولسبحها حول أجرام أكبر فإن مشارقها ومغاربها تتعدد تعددا كبيرا، مع وجود نهايتين عظميين لكل من الشروق والغروب، ووجود اتجاهات أصلية لكل جرم سماوي تحدد له شرقه وغربه.

من هنا جاءت الإشارة في كتاب الله إلى كل من المشرق والمغرب بالإفراد وبالمثنى وبالجمع تأكيدا على العديد من حقائق الأرض وحقائق أجرام السماء، وهي حقائق لم تدرك إلا في زمن العلم الذي نعيشه، فسبحان الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله، وتعهد لنا بحفظه فحفظه لنا بنفس لغة وحيه(اللغة العربية)، وحفظه حفظا كاملا: كلمة كلمة وحرفا حرفا بكل إشراقاته الربانية، وحقائقه النورانية في كل قضية عرض لها حتى يبقي حجة على أهل عصرنا من المسلمين وغير المسلمين، وشاهدا على طبيعته الربانية، وعلى صدق نبوة الرسول الخاتم والنبي الخاتم الذي تلقاه فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن والحمد لله إلى آخر الزمان، والصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى خاتمهم وإمامهم: سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

المشارق والمغارب

ظاهرة يومية عرفت منذ تكونت الشمس والأرض وهي ظاهرة الشروق والغروب .. جاءت في كتاب الله بصور وصيغ ثلاث قال **تعالى** : (**رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا**) **وقال تعالى** : (**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**) وقال تعالى : (**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**) ففي الآية الأولى جاء ذكر المشرق والمغرب في صيغة المفرد وفي الثانية في صيغة المثنى وفي الثالثة في صيغة الجمع فما هو السبب في اختلاف الصيغ ؟ وأين كل هذه المشارق والمغارب ؟ لا يبدو وجود صعوبة في فهم صيغة المفرد فأينما كنا وحيثما وجدنا رأينا للشمس مشرقا ومغربا . أما المشرقان والمغربان فقد فسرهما المفسرون مشرقي ومغربي الشمس في الشتاء والصيف . فالأرض كما نعرف تتم دورتها حول الشمس في ٣٦٥ يوما وربع يوم كذلك نعلم أن ميل محور دورانها عن المحور الرأسي يسبب اختلاف الفصول ومن ثم اختلاف مكان ووقت الشروق والغروب على الأرض على مر السنة . فالواقع أن المشرق والمغرب على الأرض - أي مكان الشروق والغروب - يتغيران كل يوم تغيرا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

طفيفا ، أي أن الشمس تشرق وتغرب كل يوم من مكان مختلف على مر السنة وهذا بدوره يعني وجود مشارق ومغارب بعدد أيام السنة وليس مشرقين ومغربين اثنين فقط ، وإن بدأ الاختلاف بين مشرقي الشمس ومغربيها أكثر وضوحا في الشتاء والصيف . فقد يكونا إذن مشرقي الشمس ومغربيها في الشتاء والصيف هما المقصودان في الآية الكريمة : (**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**) كذلك قد تكون هذه المشارق والمغارب المتعددة التي نراها على مر السنة هي المقصودة في الآية الثالثة : (بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) وقد يكون المقصود بها أيضا مشارق الأرض ومغاربها في بقاعها المختلفة فشروق الشمس وغروبها عملية مستمرة ففي كل لحظة تشرق الشمس على بقعة ما وتغرب عن بقعة أخرى . وقد يكون المقصود بها مشارق الأرض ومغاربها على كواكب المجموعة الشمسية المختلفة ، فكل كوكب - مثله في ذلك مثل الأرض - تشرق عليه الشمس وتغرب كانت هذه تفسيرات مختلفة لمعنى المشارق والمغارب والمشرقين والمغربين . بقى لنا أن نعرف السبب في ذكر المشرق والمغرب في صيغة المختلفة ، والسبب يبدو أكثر وضوحا إذا تلونا الآيات مع سوابقها وبتدبر وإمعان فالآية الأولى تبدأ (**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا**) وكما نلاحظ أن ذكر رب المشرق والمغرب هنا كان مقرونا باسم الجلالة فالله سبحانه وتعالى يأمر رسوله بأن يذكر اسم ربه وأن يتبتل إليه ، والتبتل هو الاتجاه الكلي لله وحده بالعبادة والإخلاص فيها بالخشوع والذكر ، فليس للرحمن من شريكة ولا ولد ويأتي ذلك مؤكدا في المقطع الثاني من الآية (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) ففي هذا المقام الذي يؤكد الله فيه وحدانيته لعبده ويدعوه لعبادته وحده عبادة خالصة مخلصة نجد أن صيغة المفرد هنا هي أنسب الصيغ وذكر المشرق والمغرب في صيغة المفرد يكمل جو الوحدانية الذي نعيش فيه مع هذه الآية الكريمة .. أما في الآية الثانية فالوضع يختلف ولنبدأ ببعض الآيات التي تسبق الآية الثانية قال تعالى : (**خَلَقَ الْإِنسَانَ من صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ**

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) الحديث في هذه الايات كلها في صيغة المثنى يذكرنا فيها الرحمن بأنه هو الذي خلق الإنس والجان وأنه هو رب المشرقين والمغربين وأنه هو الذي مرج البحرين ليلتقيا ولكن بدون أن يبغي أحدهما على الآخر ومهما يخرج اللؤلؤ والمرجان فصيغة المثنى هي الغالبة في هذه الآيات وكذلك فقد يبدو من الأنسب أن يذكرا المشرقين والمغربين أيضا في صيغة المثنى . وبالمثل في الآية الثالثة فإذا كتبناها مع سوابقها ولواحقها من الآيات الكريمة عرفنا سبب ذكر المشرق والمغرب في صيغة الجمع قال تعالى : (**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**) فالحديث هنا كما يلاحظ القارئ منصب على الذين كفروا ولذلك ذكرت المشارق والمغارب على نفس النمط في صيغة الجمع أيضا حتى يتأتى التوافق في الصيغ الذي وجدناه في الآيتين السابقتين . ومن ناحية أخرى يدعونا العلي القدير للتعمق والتفكير في معاني الصيغ المختلفة فقد يكون المقصود بالمشارق والمغارب هنا على كفار جدد في أماكن جديدة وكأن العلي القدير يخاطبهم ويقول (فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ) هذه التي عرفتموها ورأيتموها في كل مكان وزمان على الأرض إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منكم وما نحن بمغلوبين .. لا شك في أن التوافق الذي رأيناه في صيغ الآيات الثلاث السابقة هو مثل حي من بلاغة الأسلوب القرآني وجمال تعبيره ودقة معانية وإلى جانب ذلك نجد أن ذكر المشرق والمغرب مرة في صيغة المفرد ومرة في صيغة المثنى ومرة في صيغة الجمع يعطي باعــثا للبحث والتفكير وحافزا للتعمق والتأمل . فالمعاني والكلمات والتعبيرات بل والصيغ لا تأتي منقادة بهذه السهولة واليسر إلا للعزيز الحكيم وإذا تعمقنا مرة أخرى في معنى رب المشارق والمغارب

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لوجدنا في هذا التعبير أيضا هذه الزاوية الجديدة التي لا عهد للإنسان بها فشروق الشمس وغروبها في كل لحظة على بلد جديد وعلى بقعة مختلفة من بقاع الأرض في أبعد ما يكون عن التصور الإنساني(١).

([١]) المصدر " آيات قرآنية في مشكاة العلم " د. يحيى المحجري

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com